أثر تشجيع الأمراء

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

نالت الآداب العربية من تشجيع الأمراء في مختلف العهود مالم تكد تظفر به آداب أمة أخرى ؛ ومن الأقوال المتواترة في كتب الأدب العربي وتاريخه أن ذلك التشجيع كان من أهم أسباب ازدهار الأدب ، ولكن الحقيقة التي يراها الدقق أن ذلك التشجيع لم يكن له ذلك الأثر الطيب المزوّ إليه ، بل كان له في الأدب العربي أثر وخيم بعيد المدى

ذلك بأن الأمراء حين شجعوا الشعر وقربوا الشعراء وأغدقوا عليهم لم يقصدوا إلى تشجيع الفن لذاته أو إكرام أصحابه ، وإنما كانت لهم غاياتهم الشخصية ومآربهم السياسية المعروفة ، فكانوا يريدون من أولئك الشعراء التزكية وإعلاء الصيت ومناضلة أعدائهم والذب عن دعواهم في الملك والسيادة ، ولذلك لم يطلبوا عندهم سوى فن واحد من فنون الشعر هو المدح ، ولم نعلم عن أمير أجاز شاعراً لنبوغه في الوصف أو النسيب أو قول الحكمة وضرب الأمثال

فالشعر الذي شجعه الأمراء هو المدح دون غيره ، وليس المدح بخير فنون الشعر ولا هو من الشعر على الاطلاق لمن طلب في الشعر تعبيراً عن شعور صادق قيم ؛ وما كان المدح الذي أنشاه أولئك الأمراء في الشعر العربي إنشاء لا نظير له يحوي شعوراً صحيحاً ولا تفكيراً مستقيماً

إن أول خصائص الشعر الجيد صدوره عن دافع وجداني داخلي ، وهذه صفة كانت تنقص شعر المدح الذي كان لا يصدر إلا عن دافع مادي خارجي هو صلة الممدوح ، وإن لم يحس الشاعر بحب له ولا إعجاب به ، حتى ولو أضمر له البغض والازدراء . فلا غرو ، وقد فقد شعر المديح هذه الصفة الأساسية أن خالطه الكذب وأسرع إليه التهويل والمبالغة والتهافت والاسفاف والاحالة ، وأغرى معالجيه بسد نقص الشعور بالتلاعب باللفظ واصطناع محسناته ، وأولعهم بالسرقة من متقدميهم وتعاور معانيهم توليداً وتخريجاً وابتذالاً ، حتى لم تعد غاية قرض الشعر التعبير عن الشعور الصحيح — لأنه لم يكن هناك في الغالب شعور — بل عادت الغاية إبداء البراعة ومعارضة المتقدمين واستدرار أكبر الصلات

وشعر المديح استتبع ضرباً آخر من الشعر ليس أقل منه حطة في المرتبة وبعداً عن أغراض الشعر الصحيح ، وهو الهجاء : لأن إرضاء الممدوح كان يستتبع ذم خصومه ، ولأن المادح المخيَّب كان ينقلب في الغالب هاجياً مفحشاً لممدوحه أو للشاعر الذي زاحمه ونال الحظوة دونه ، ولأن بعض الأمراء كان يشجع تراشق الشعراء بذيء القول شغلاً لأذهان الناس ، وكان من ثمار هذه الخطة مقذعات جرير والفرزدق والأخطل

واستتبع شعرُ المديح ضرباً آخر من النظم بعيداً عن الشعر الصحيح والشعور المستقيم امتلأ أيضاً بأنواع الاغراب والاغراق

الصحابة (رض) ويصفون أعمالهم ، ويذكرون حالهم ، ويرون أن الحق في جانب عليّ عليه السلام ، وأن محاربيه هم الفئة الباغية على الامام الحق ، وهم المخطئون في اجتهادهم ، ولكنهم يؤولون التشاجر بينهم تأدباً واحتراماً لصحبتهم ، وحفظاً لكرامتهم ، وحسن بلائهم في نشر الدعوة الاسلامية ، ويقولون : الكل ينشدون مصلحة الاسلام

أيها الاخوان الكرام : أليست الدعوة إلى عقد مؤتمر يعيد الوحدة الاسلامية على هذا الأساس الديني ، السُّني العلوي هو المطلوب ولا سيما في هذا الزمن العصيب ؟

فنحن نعزز رأي الأستاذ الجليل أحمد أمين ، ونرجو أن يعقد مؤتمر في الكنانة أو في دار السلام تزول به تلك الاحن ، وتحول تلك المشاحنات الى ما يعود على الأمة بالنفع العام من توحيد الكلمة ، وتقوية الملة ، وانشاء دور العلم المشتركة ، واحياء ذكرى أئمة آل البيت عليهم السلام بتجديد هديهم واصلاحهم

(دمشق) محمد بهجة البيطار

والاسفاف ، ذلك هو النسيب الاستهلالى الذى التزمه الشعراء المدّاحون من أهل الحضر تشبها بالمداحين من الجاهليين وإمعاناً فى تقليدهم

وكل هذه الرذائل التى تجمعتْ فى شعر المديح ـ لخلوه من الدافع الوجدانى والشعور الصادق ـ انتقلت إلى ضروب القول الأخرى ففشت فى الشعر كله عيوب التقليد والمبالغة والصناعة اللفظية ومحاولة إبداء البراعة

واسترقّتْ هباتُ الأمراء ـ للأسف الشديد ـ رِقابَ معظم أقطاب الشعر العربى ، فلم يَنزِّه شعرَهُ عن طلبها إلا القليل جدا ممن أبت لهم ذلك ظروف خاصة ، كالشريف الرضى وأبى العلاء ، وأضيعَ جانبٌ ضخم من عبقريات أبى نواس والطائى والبحترى وابن الرومى والمتنبى وغيرهم من الفحول فى نظم الأكاذيب والمفارقات طلباً لجوائز الأمراء ، فكان من أقوال هؤلاء الفحول :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تطعه أنامله

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعودها بنغمة طالب

وقد زعموا أن النجوم خوالد ولو حاربته ناح فيها الثواكل

وكشفن عن بَرَدٍ خشيتُ أذيبه
من حر أنفاسى فكنتُ الذائبا

والمتأمل لهذه الأبيات يرى إلى أى حدّ من تفاهة المعانى وكذبها واستحالتها قد خرج المديح بالشعر وبفحول الشعر ؛ بيد أن النُّقّاد انساقوا فى ذلك التيار ، فمدُّوا هذا السفساف من غرور أولئك الشعراء وراحوا يقابلون بين هذه الأقوال ويفاضلون بين قائليها ، والأديب الذى يريد من الشعر التعبير الصادق عن الشعور الصحيح لا يرى لأحد من قائليها فضلا بل يحذفها من عداد الشعر جملة

ولو أعرض أولئك الشعراء عن تلك السبيل وقَصَرُوا القول على بيان شعورهم الصحيح وأفكارهم الصادقة ووفروا على الفن الذى حبّبهم به الطبيعة جاعليه غاية لنفسه ، إذن لربح الشعر العربى ربحا جزيلا ولَوَسَّمُوا من أغراضه وأوضاعه ورحّبوا من أطرافه وآفاقه

هذا أثر تشجيع الأمراء للشعر وصلتهم للشعراء : إدخالٌ لفارغ القول وكاذبه وسفسافه ، وإزاغة للنظرة إلى الغرض منه ، وتقييد لأغراضه ومذاهبه ، وقعود بهمم رجاله عن استيفاء غاياته ، وصرفٌ لهم عن جِدّ التفكير ونافعه ؛ ولو أراد الأمراء بالشعر خيراً لكفّوا عن رجاله صِلاتهم فطلب الشعراء الرزق من أبوابه التى يطلبه الناس منها ، ونحّوْا الشعر عن المادة ، وأبقوه كما يجب أن يبقى ترجمانا لشاعر النفس ووصفا لروائع الكون فجاء الأدب العربى أشد انطباعا بطابع الصدق مما كان

لم يكن للأدب الانجليزى — لحسن حظه — مثل هذا الاتصال الوثيق ببلاط الأمراء ، ولم يتخذ حلية من حلى القصور وآلة من آلات السياسة إلا فترة وجيزة فى أواخر القرن السابع عشر خالطه فيها الضعف والاستهتار والمجون والملاحاة ، ثم كانت للأدباء بالنبلاء فى بعض القرن الثامن عشر صلة ، ولكن شتان بينها وبين صلة من تقدم ذكرهم من الشعراء بالأمراء من العرب : كان الأديب يؤلف فيما عنّ له ونال اهتمامه من موضوع ثم يهدى كتابه عند نشره إلى النبيل الذى يتولاه برعايته ، وليس فى هذا ضرر يقاس بالأضرار التى تقدم ذكرها فى الأدب العربى

وقد نشأ منصب شاعر الملك فى انجلترا منذ زمان ، ولكن الشعراء الذين شغلوه لم يترفعوا على الملوك توفر شعراء العربية ، ولم يشغل المنصب من كبار الشعراء إلا القليل ، وكان اختيارهم لملئه تقديراً صحيحاً لسالف جهودهم فى عالم الأدب ، ولم يكن ماقالوه بصفتهم شعراء الملك بخير ما قالوا ، ولم يكن بالكثير ، ولم تزل وظيفة شاعر الملك تتضاءل حتى صار المنصب اسميا فخريا لا أكثر

وقد جاء الأدب الانجليزى لخلاصه من لوثة تشجيع الأمراء — أو بالأحرى تسخير الأمراء — وزلفى الأدباء اليهم حرّ النزعة طليق الفكرة بعيد المرمى صادق التعبير ، يعبر عن إحساسات الفرد ويترجم عن عواطف الجماعة ، وانفسحت أمامه الآفاق إذ خلا من القيود ، فتعددت أغراضه وتكاثرت أوضاعه ، إذ كانت وجهته دائماً وجهة كل الفنون الرفيعة : التعبير الجميل عن شعور الانسان الصحيح بروائع الحياة ، بعيداً عن ذلك الغرض المادى الدخيل الذى تعثر الأدب العربى فى قيوده طويلاً

فتحى أبو السعود